كتاب موسى المفقود ـ الجزء الثّاني عشر.

بحث وإعداد: ميرنا جردلي.

تدقيق وإشراف: الأستاذ موّفّق البغداديّ.

عَالَمُ الأَمْرِ وَالرُّوحِ:

وَمَعَ الِاقْتِرَابِ مِنْ نِهَايَةِ هَذَا البَحْثِ، لَا بُدَّ أَنْ نَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَفْهُومِ "الرُّوحِ" كَمَا وَرَدَ فِي آيَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، فَهَذَا المُصْطَلَحُ لَا يُمْكِنُ تَجَاوُزُهُ لِمَنْ أَرَادَ فَهْمَ الوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ، وَلَا يَكْتَمِلُ تَأَمُّلُنَا فِي مَوْضُوعِ الكِتَابِ مِنْ دُونِ المُرُورِ عَلَيْهِ.

الرُّوحُ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ لَيْسَ شَيْئًا نَقْرَأُهُ عَابِرِينَ عَلَيْهِ بِبَسَاطَةٍ، بَلْ يَجِبُ الوُقُوفُ عَلَيْهِ بِشَكْلٍ جِدِّيٍّ وَمُحَاوَلَةُ التَّعَمُّقِ بِكُلِّ مَا ارْتَبَطَ فِيهِ. فَالوَاضِحُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ، لَمْ يُذْكِرِ اللهُ لَنَا مَاهِيَّتَهُ، وَلَكِنَّ الوَاضِحَ أَنَّ لَهُ عَلَاقَةً وَثِيقَةً وَمُبَاشِرَةً بِأَوَامِرِ اللهِ، وَبِنُزُولِ الوَحْيِ، وَبِلَحَظَاتِ العُرُوجِ وَالنُّزُولِ بَيْنَ عَوَالِمِ الغَيْبِ وَعَالَمِنَا.

وَقَدْ ذُكِرَ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، تَخْتَلِفُ فِيهَا السِّيَاقَاتُ وَلَكِنْ يَجْمَعُهَا مَقَامُ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ.

وَالرُّوحُ كَلِمَةٌ أَصْلُهَا أَوْ جَذْرُهَا بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ مِنْ "رَاحَ"، وَمِنْ مُشْتَقَّاتِهَا: الرَّاحَةُ، وَالتَّرْوِيحُ، وَالِاسْتِرَاحَةُ، وَالرَّيْحَانُ، وَالرَّائِحَةُ، وَرَاحَةُ البَالِ. وَعَكْسُهَا وَضِدُّهَا الهَمُّ وَالحُزْنُ. وَلِذَلِكَ فَالوَاضِحُ أَنَّهُ يَتَنَزَّلُ بِكُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ أَمْرٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ وَحْيٍ. وَلِذَلِكَ فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ لِلْهُدَى وَالنُّورِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ رَسَالَاتٍ نَزَلَتْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَوَامِرِهِ الَّتِي كُلُّهَا خَيْرٌ لِعَالَمِنَا عَامَّةً وَالبَشَرِيَّةِ بِالخُصُوصِ.

وَمِنْ أَهَمِّ وَظَائِفِهِ الأُخْرَى، أَنْ يَكُونَ هُوَ حَامِلَ النَّفْخِ لِإِحْيَاءِ النَّاسِ بِإِذْنِ اللهِ. وَهُوَ لَيْسَ مِنْ ذَاتِ اللهِ كَمَا يَظُنُّ البَعْضُ -وَحَاشَاهُ رَبُّ العِزَّةِ-، وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسَبَهُ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ مِنْ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى. نَسَبَهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَفْسِهِ لِرَفْعِ قِيمَتِهِ وَمَكَانَتِهِ،

سُورَةُ الحِجْرِ: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ .

فَفِي المُفْرَدَةِ "رُوحِي"، اليَاءُ هُنَا تُسَمَّى يَاءَ مِلْكِيَّةٍ، مِثْلَ "سَيَّارَتِي" أَوْ "بَيْتِي"، وَلَيْسَتْ يَاءَ المُتَكَلِّمِ. فَيَاءُ المُتَكَلِّمِ تَأْتِي مَعَ الأَفْعَالِ، وَلَا يَصِحُّ أَصْلًا أَنْ تَكُونَ الرُّوحُ مِنْ ذَاتِ اللهِ أَبَدًا. فَلَوْ أَنَّ فِينَا مَا هُوَ مِنْ ذَاتِ اللهِ، لَكُنَّا نُورَانِيِّينَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَكُونَ أَوْ يَكُونَ مِنَّا مَنْ هُمْ مِنْ ذَوِي المَعَاصِي وَالفَوَاحِشِ. وَلَا يُمْكِنُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِينَا شَيْءٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَيَكُونَ مَحْدُودًا فِي شُخُوصِنَا أَوْ دَاخِلِنَا أَوْ حَتَّى جُزْءًا مِنَّا. فَتَعَالَى المَلِكُ الحَقُّ وَتَنَزَّهَ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ مُجَسَّدٌ.

وَلِلوُقُوفِ عَلَى هَذَا المَوْضُوعِ بِشَكْلٍ أَوْسَعَ، نَسْتَعْرِضُ بَعْضَ الآيَاتِ، وَنَتَأَمَّلُ فِيمَا تَحْمِلُهُ مِنْ دَلَالَاتٍ، لِنَتَعَرَّفَ عَلَى هَذَا الكَائِنِ الغَيْبِيِّ الَّذِي اخْتَصَّهُ اللهُ بِأَسْرَارٍ عَظِيمَةٍ، وَكَرَّمَهُ اللهُ لِيَكُونَ أَهْلًا لِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَمِنْ هُنَا، كَانَ لَزَامًا عَلَيْنَا أَنْ نَتَدَبَّرَ الآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا هَذِهِ المُفْرَدَةُ، لِنَقِفَ عَلَى مَعَالِمِهَا فِي ضَوْءِ القُرْآنِ، لَا فِي ظِلَالِ الظُّنُونِ. وَنَبْدَأُ مِنَ البِشَارَةِ بِالنَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

سُورَةُ مَرْيَمَ: فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ .

فَالرُّوحُ هُنَا مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ، تَمَثَّلَ بِصُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ، لِيَكُونَ رَسُولًا مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ إِلَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فِي هَيْئَةٍ تُطِيقُ الخِطَابَ مَعَهُ. وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ "الرُّوحَ" كِيَانٌ مُسْتَقِلٌّ، لَهُ وُجُودٌ ذَاتِيٌّ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى التَّمَثُّلِ بِهَيْئَةِ بَشَرٍ. وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ كَمَا تُرْسَلُ المَلَائِكَةُ -وَسَنَتَوَقَّفُ عِنْدَ تَنَزُّلِهِ لَاحِقًا.

وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ هَذِهِ مَكْرُمَةٌ إِلَاهِيَّةٌ عَظِيمَةُ الشَّأْنِ، فَمَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ هِيَ الوَحِيدَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ أَنَّ الرُّوحَ تَمَثَّلَ لَهَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِكَوْنِهَا صِدِّيقَةً ذَاتَ شَأْنٍ عَالٍ.

أَمَّا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾.

فَفِي هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ قَدْ تَمَّ بِوَاسِطَةِ الرُّوحِ الأَمِينِ، حَيْثُ جَعَلَهُ وَاسِطَةَ الإِنْزَالِ، وَمَوْضِعَ الأَمَانَةِ الإِلَاهِيَّةِ. فَهُوَ أَمِينٌ عَلَى الوَحْيِ، لَا يُبَدِّلُ وَلَا يُغَيِّرُ، بَلْ يُبَلِّغُهُ تَمَامًا كَمَا أُمِرَ بِهِ.

سُورَةُ المَعَارِجِ: تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾.

وَهُنَا نُلَاحِظُ أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ المَلَائِكَةِ، وَحَتَّى إِنْ كَانَ، فَنَرَاهُ كِيَانًا أَرْفَعَ، مُنْفَرِدًا بِمَكَانَةٍ خَاصَّةٍ وَرُقِيٍّ مُسْتَقِلٍّ.

سُورَةُ النَّبَإِ: يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾.

سُورَةُ القَدْرِ: تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾.

فَالرُّوحُ هُنَا فِي مَقَامِ النُّزُولِ وَالتَّنْزِيلِ يَكُونُ مُنْزَلًا مُقْرُونًا بِمَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ، وَكَأَنَّهُ حَامِلُ الأَمْرِ الإِلَاهِيِّ الأَعْظَمِ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، الَّتِي تَتَنَزَّلُ فِيهَا الأَوَامِرُ الكَوْنِيَّةُ مِنْ خِلَالِ هَذَا الرُّوحِ. تَنْزِلُ مَعَهُ المَلَائِكَةُ، وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ أَوْ سُلْطَانٌ مُتْبَعًا بِحَاشِيَةٍ وَأَتْبَاعٍ، دَلِيلًا عَلَى مَكَانَتِهِ العَالِيَةِ.

وَأَخِيرًا فِي سُورَةِ غَافِرٍ: رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾.

فَالوَاضِحُ هُنَا أَنَّ الرُّوحَ مُقْتَرِنٌ بِالأَمْرِ الإِلَاهِيِّ، يُلْقَى بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ، وَيَحْمِلُ أَوَامِرَ اللهِ عَلَى مَنِ اصْطَفَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ.

كُلُّ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ، إِذَا جُمِعَتْ، دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ هُوَ مَخْلُوقٌ غَيْبِيٌّ، مِنْ أَشْرَفِ مَا خَلَقَ اللهُ، اخْتَصَّهُ بِأَمْرِهِ، وَجَعَلَهُ وَاسِطَةً بَيْنَ عَالَمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَبَيْنَ عَالَمِنَا المَادِّيِّ. لَيْسَ مَجَرَّدَ مَلَكٍ أَوْ أَيِّ مَلَكٍ، بَلْ لَهُ وَصْفٌ وَمَقَامٌ وَمَهَامٌّ خَاصَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالأَوَامِرِ الإِلَاهِيَّةِ وَالتَّنْزِيلِ وَالوَحْيِ، وَالإِحْيَاءِ. وَحُضُورُهُ وَاضِحٌ بَارِزٌ

جَلِيٌّ فِي مَوَاطِنِ العُرُوجِ وَالنُّزُولِ، فِي يَوْمٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَكُونَ يُعَادِلُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي عَالَمِنَا هَذَا، وَفِي لَيْلَةٍ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ وَظَائِفِهِ إِلْقَاءُ الوَحْيِ عَلَى مَنِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرُوا النَّاسَ وَيُبَلِّغُوا أَمْرَ اللهِ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ التَّشْرِيفَ الحَقَّ الَّذِي لَا يَعْلُوهُ شَرَفٌ.

سُورَةُ النَّحْلِ: يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾.

سُورَةُ النَّحْلِ: قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

سُورَةُ الشُّورَىٰ: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾.

لَا بُدَّ مِنَ الوُقُوفِ عَلَى هَذَا التَّعْبِيرِ، إِذْ لَمْ يَقُلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى "الرُّوحَ"، بَلْ قَالَ "رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا"، وَكَأَنَّمَا هِيَ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَ فَرْدًا وَاحِدًا، بَلْ أَكْثَرَ، وَكُلُّهُمْ يَخْتَصُّونَ بِنَفْسِ الصِّفَاتِ. وَقَدْ يَكُونُ لِكُلٍّ مِنْهُم مَهَامُّ خَاصَّةٌ، وَقَدْ أَوْحَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ وَاحِدًا مِنْهُمْ، لِيَكُونَ وَاسِطَةً فِي التَّلَقِّي وَالتَّعْلِيمِ وَنَشْرِ الرِّسَالَةِ.

وَاخْتَلَطَ الفَهْمُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، فَظَنُّوا أَنَّ "الرُّوحَ" هُنَا هُوَ القُرْآنُ نَفْسُهُ. وَلَكِنَّنَا بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ مُفْرَدَاتِ القُرْآنِ لَا تُسْتَعْمَلُ الوَاحِدَةُ مِنْهَا بِمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ، بَلْ لَهَا مَعْنًى ثَابِتٌ، تَتَنَوَّعُ دَلَائِلُهُ بِحَسَبِ السِّيَاقِ. فَالرُّوحُ، وَكَمَا بَيَّنَّا، هُوَ كَائِنٌ غَيْبِيٌّ، مُسْتَقِلٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ "القُرْآنَ" ذَاتَهُ، بَلْ هُوَ الَّذِي حَمَلَ القُرْآنَ، وَأَلْقَى أَوَامِرَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَبِأَمْرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَدْبِيرِهِ .

سُورَةُ النَّمْلِ: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾.

سُورَةُ القَصَصِ: وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾.

فَالرُّوحُ يُلْقَي ويُلْقِي، وَالرَّسُولُ يَتَلَقَّى .

وَتَكْتَمِلُ هَذِهِ الصُّورَةُ حِينَ نُرْبِطُهَا بِالآيَاتِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ تَدْبِيرِ اللهِ لِلأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ:

سُورَةُ يُونُسَ: إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

سُورَةُ الرَّعْدِ: ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾.

سُورَةُ السَّجْدَةِ: يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾.

سُورَةُ الطَّلَاقِ: ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾.

ثُمَّ تَأْتِي **سُورَةُ الدُّخَانِ** لِتَكْشِفَ هَذَا المَعْنَى بِشَكْلٍ وَاضِحٍ وَجَلِيٍّ: **حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾.**

فَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى لَيْلَةٍ تَتَنَزَّلُ فِيهَا الأَوَامِرُ الإِلَاهِيَّةُ، يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ بِحِكْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَيُنَفَّذُ بِإِرَادَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى يَدِ مَخْلُوقَاتِهِ الغَيْبِيَّةِ، وَمِنْهَا -وَأَهَمُّهَا كَمَا أَرَى- الرُّوحُ.

وَإِذَا كَانَتِ المَلَائِكَةُ قَدْ شُهِدَ لَهَا بِالتَّنْفِيذِ، فَإِنَّ الرُّوحَ قَدْ ذُكِرَ مِرَارًا مَعَهَا، وَلَكِنْ عَلَى وَجْهٍ مُسْتَقِلٍّ، مِمَّا يُدِلُّ عَلَى خُصُوصِيَّتِهِ فِي الخَلْقِ وَالمَقَامِ. يُشَارِكُهُمُ الطَّاعَةَ وَالتَّنْفِيذَ، وَأَثَرُهُ ظَاهِرٌ فِي كُلِّ مَا أُنْزِلَ مِنْ هِدَايَةٍ وَوَحْيٍ وَبَيَانٍ.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ: فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ: فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾.

وَمَعَ أَنَّ اللهَ جَمَعَ المُقَسِّمَاتِ وَالمُدَبِّرَاتِ وَالمُلْقِيَاتِ فِيمَا سَبَقَ، فَهِيَ لِكَوْنِ المَلَائِكَةِ تَتَنَزَّلُ مَعَ الرُّوحِ فِي هَذِهِ المَهَمَّةِ العَظِيمَةِ، فَيَشْتَرِكُونَ فِي الوَظِيفَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا هَذَا الرُّوحُ عَظِيمُ الشَّأْنِ. وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ أَوَامِرُ أُخْرَى تَحْمِلُهَا المَلَائِكَةُ، وَقَدْ تَقِلُّ أَهَمِّيَّتُهَا عَنْ وَظِيفَةِ الرُّوحِ. وَجَمِيعُ أَوَامِرِ اللهِ هَامَّةٌ. فَمَثَلًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِأُمُورِ دُنْيَانَا مِنْ حِفْظٍ لَنَا، أَوْ تَسْيِيرِ السَّحَابِ وَالرِّيَاحِ، وَمَا دُونَ وَمَا أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ، مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ، فَلَا شَكَّ مَثَلًا أَنَّ المَلَائِكَةَ الَّتِي تَكْتُبُ وَتَسْتَنْسِخُ أَفْعَالَنَا، فَذَلِكَ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأُمُورٌ أُخْرَى لَا تُحْصَى، وَالَّتِي قَدْ لَا نُدْرِكُهَا نَحْنُ كَبَشَرٍ .

وَبَعْدَ تَرَاكُمِ المَعَانِي السَّابِقَةِ، يُفْتَحُ أَمَامَنَا بَابُ تَأَمُّلٍ أَوْسَعَ فِي جَوْهَرِ هَذَا المَخْلُوقِ الغَيْبِيِّ، خُصُوصًا بَعْدَ بِنَاءِ الفَهْمِ المُتَدَرِّجِ مِنْ خِلَالِ الآيَاتِ الَّتِي مَرَرْنَا عَلَيْهَا، وَبَعْدَ أَنْ تَكَوَّنَتْ لَدَيْنَا صُورَةٌ أَوَّلِيَّةٌ -وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُكْتَمِلَةٍ.

وَيَجْدُرُ بِنَا الآنَ أَنْ نَقِفَ عِنْدَ الآيَةِ المَحْوَرِيَّةِ، الَّتِي شَكَّلَتْ مَوْضِعَ تَسَاؤُلٍ وَاعْتِرَاضٍ وَنِقَاشٍ وَجِدَالٍ وَحَيْرَةٍ لَدَى الكَثِيرِينَ مِنَ المُفَسِّرِينَ:

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقَعُ فِي سِيَاقٍ عَمِيقٍ مِنَ السُّورَةِ نَفْسِهَا، وَفِي قَلْبِ حِوَارٍ مُسْتَمِرٍّ بَيْنَ النَّبِيِّ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَقَوْمِ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الَّذِينَ كَانُوا يَخْتَبِرُونَهُ بِأَسْئِلَةٍ مُنْتَقَاةٍ بِعِنَايَةٍ، قَدْ تَكُونُ مِنْ بَابِ التَّعَلُّمِ، أَوْ مُحَاوَلَةِ التَّحَرِّي لِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ، أَوْ مُحَاوَلَةِ إِعْجَازِهِ. فَجَاءَ سُؤَالُهُمْ عَنِ الرُّوحِ غَالِبًا لَيْسَ مِنْ بَابِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَابِ التَّشْكِيكِ وَالْجِدَالِ وَالِاخْتِبَارِ. فَتَأْتِي الْإِجَابَةُ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، كَمَا بَيَّنَّا سَابِقًا. فَسُؤَالُهُمْ كَانَ عَنْ مَاهِيَّةِ الرُّوحِ، لِتَأْتِيَ الْإِجَابَةُ عَنْ وَظِيفَتِهِ، مُبْقِيَةً سِرَّ كِينُونَتِهِ طَيَّ الْكِتْمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا وَلَمْ وَلَنْ يَمْلِكَ الْمَقْدِرَةَ عَلَى الْعِلْمِ بِمَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا بِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ صَارَ لَدَيْنَا فِي هَذَا الْبَحْثِ فَهْمٌ وَاضِحٌ لِمَفْهُومِ الْكِتَابِ وَالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ، وَدَوْرِ الرُّسُلِ، وَمَوَاقِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الدَّعْوَةِ، تَأْتِي هَذِهِ الْآيَةُ مِفْتَاحًا لِتَوْسِعَةِ الْمَدَارِكِ، وَتَأْكِيدِ حَقِيقَةٍ أَسَاسِيَّةٍ بِأَنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقٌ لَا سَبِيلَ إِلَى إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، فَهُوَ "مِنْ أَمْرِ رَبِّي"، أَيْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الْخَاصِّ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، حَامِلًا أَوَامِرَهُ. هَذَا الْعَالَمُ الَّذِي لَا يُطْلِعُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَحَدًا إِلَّا لَوِ ارْتَضَى شَيْئًا مِنْهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، كَمَا فِي **سُورَةِ الْجِنِّ: عٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾.**

فَالْآيَةُ لَا تُجِيبُ عَلَى السُّؤَالِ بِتَحْدِيدِ مَاهِيَّةِ الرُّوحِ، بَلْ تَرْفَعُ الْحِجَابَ عَنْ مُسْتَوَى الْمَعْرِفَةِ الْمُمْكِنَةِ لَنَا كَبَشَرٍ، وَهَذَا فِي ذَاتِهِ إِجَابَةٌ أَعْمَقُ مِنْ مَجَرَّدِ تَعْرِيفٍ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الرُّوحِ هُوَ حَدِيثٌ عَنِ الْغَيْبِ، عَنِ الْأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ، عَنِ الْعَالَمِ الَّذِي لَا يُرَى، وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، بَلْ يَسْتَلْهِمُ بِالْإِيمَانِ. فَالْمَعْرِفَةُ شَيْءٌ، وَالْإِيمَانُ شَيْءٌ آخَرُ، فَالْإِيمَانُ قَلْبِيٌّ لَا تُدْرِكُهُ مَادَّةٌ وَلَا تُحِيطُ بِهِ عُقُولٌ .

وَكَمَا أَسْلَفْتُ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَهَا، بَلْ تَقَعُ فِي قَلْبِ الْمَشْهَدِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي يَتَنَاوَلُ جُمْلَةً مِنَ الْقَضَايَا الْكُبْرَى، مِنْ وَحْيٍ وَقُرْآنٍ وَكِتَابٍ.

أَمَّا كَلِمَةُ "أَمْر" فِي الْقُرْآنِ، فَلَا تَعْنِي مَجَرَّدَ التَّكْلِيفِ، بَلْ تَدُلُّ عَلَى عَالَمٍ غَيْبِيٍّ أَسَرَّهُ اللَّهُ عَنَّا، عَالَمٍ لَا يَخْضَعُ لِقَوَانِينَ الْأَسْبَابِ وَالْمَسْبَبَاتِ، بَلْ يُوجَدُ بِكَلِمَةِ "كُنْ"، كَمَا جَاءَ فِي **سُورَةِ يَسٓ: إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾.**

وَاللَّافِتُ فِي الْآيَةِ: "وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"، وَكَمَا أَنَّهَا لَمْ تُعَرِّفِ الرُّوحَ وَلَمْ تُفَصِّلْهُ، بَلْ زَادَتْ حَيْرَتَهُمْ حَيْرَةً عَلَى حَيْرَةٍ، لِتُدَلَّ عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ حَقِيقَتِهِ مُمْتَنِعٌ، لَا بِالْإِلْهَامِ، وَلَا بِالْعَقْلِ، وَلَا بِالتَّجْرِبَةِ، بَلْ هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الْإِلَهِ الْعَظِيمِ .

وَسُؤَالُهُمْ هَذَا يُذَكِّرُنَا بِمَا كَانَ مِنْ فِرْعَوْنَ فِي **سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾.**

فَفِي كِلَا السُّؤَالَيْنِ يَظْهَرُ تَجَرُّؤٌ وَاسْتِهْتَارٌ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، وَتَطَاوُلٌ عَلَى الْمَقَامِ الْإِلَهِيِّ، وَكَأَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ يَطْلُبُ أَنْ يُدْرِكَ مَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِهِ.

وَمِنَ الْهَامِّ جِدًّا أَنْ نَتَوَقَّفَ عِنْدَ الْآيَةِ: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ..."، فَهِيَ لَيْسَتْ خَارِجَةً عَنْ سِيَاقِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، بَلْ فِي صَمِيمِهِ. فَلَمْ تَأْتِ فِي عُزْلَةٍ، بَلْ ضِمْنَ نَسَقٍ مِنَ الْآيَاتِ تَتَحَدَّثُ عَنْ تَنْزِيلِ الْوَحْيِ، وَعَنِ الْمَوْقِفِ الرَّافِضِ وَالْمُتَعَالِي لِلْكَافِرِينَ تِجَاهَ هَذَا الْوَحْيِ. فَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَنْ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ فِي **سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾**،

وَبَعْدَهَا مُبَاشَرَةً: **وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾.**

هَذَا التَّتَابُعُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَبَثًا، بَلْ يُؤَكِّدُ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الرُّوحِ كَانَ عَنْ ذَلِكَ السِّرِّ الَّذِي يَحْمِلُ الْوَحْيَ، عَنْ ذَاكَ الْقَادِمِ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ بِالْقُرْآنِ. كَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِمْ يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ يَأْتِيكَ هَذَا الْوَحْيُ؟ وَمَا هَذَا الرُّوحُ الَّذِي تَدَّعِي أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْكَ؟ وَمِنْ أَيِّ عَالَمٍ يُبَثُّ إِلَيْكَ هَذَا الْكَلَامُ؟ مَنْ يُمِلِيهِ؟ وَيَبْدُو لِي أَنَّ الْمَفَاهِيمَ اخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمْ بَيْنَ هَذَا الرُّوحِ وَمَا تَعَوَّدْنَا وَتَعَلَّمْنَاهُ، وَهُوَ مَحْضُ خَلْطٍ وَسُوءِ فَهْمٍ مِنْ أَنَّ الرُّوحَ تَسْكُنُ الْجَسَدَ.

فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَقْطَعَ الشَّكَّ بِالْيَقِينِ بِأَنَّ الرُّوحَ كَائِنٌ مَخْلُوقٌ مُكَلَّفٌ بِإِنْزَالِ الْوَحْيِ وَنَفْخِ الْحَيَاةِ، وَكُلُّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. فَسِيَاقُ الْآيَةِ يُوَضِّحُ بِشَكْلٍ جَلِيٍّ أَنَّ الرُّوحَ هُنَا مُرْتَبِطَةٌ بِالْوَحْيِ، إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ عَنْ قِوَامِ الْحَيَاةِ: "وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ"، فَالْحَدِيثُ هُنَا عَنْ وَحْيٍ يُلْقَى، وَكَلَامٍ يُنَزَّلُ، لَا عَنْ حَيَاةٍ تُهَبُ أَوْ تُسْلَبُ. وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الرُّوحَ فِي هَذَا السِّيَاقِ لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالنَّفْسِ، وَلَا النَّفْخَةِ الَّتِي بِهَا يَحْيَا الْإِنْسَانُ، بَلْ هِيَ -وَكَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا- مَخْلُوقٌ غَيْبِيٌّ لَهُ وَظَائِفُ خَاصَّةٌ يُؤَدِّيهَا بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ، فَكَانَتْ هُنَا الْوَحْيَ. وَهَكَذَا فَقَدْ صَحَّحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمَفْهُومَ السَّائِدَ الْخَاطِئَ أَنَّ الرُّوحَ هِيَ مَا يُسَمَّى بِرُوحِ الْإِنْسَانِ الَّتِي يَحْيَا بِهَا وَتَسْكُنُهُ، وَالَّتِي هِيَ مِنْ تَخْرُجُ عِنْدَ الْوَفَاةِ. بِيدَ أَنَّ الْقُرْآنَ يُصَحِّحُ لَنَا هَذَا الْمَفْهُومَ فَيُخْبِرُنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنْ جَسَدٍ وَنَفْسٍ، وَهَذِهِ النَّفْسُ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْجَسَدَ، وَهِيَ الْمُكَلَّفَةُ، وَهِيَ الذَّاتُ الْبَشَرِيَّةُ، وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ عِنْدَ الْمَوْتِ .

إِذًا الرُّوحُ لَيْسَتْ هِيَ النَّفْسَ، وَلَا حَتَّى جُزْءًا مِنَ الْإِنْسَانِ. فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ إِلَّا جَسَدٌ وَنَفْسٌ، أَمَّا نَفْخَةُ الرُّوحِ - وَالَّتِي هِيَ فِعْلُ الرُّوحِ نَفْسِهِ- فَهِيَ قَدْ تَكُونُ الْمُشَغِّلَ وَالْمُحَفِّزَ الَّذِي يُفَعِّلُ النَّفْسَ دَاخِلَ هَذَا الْجَسَدِ، فَيُهَبُ بِذَلِكَ الْحَيَاةُ لِلْإِنْسَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَنَنْتَقِلُ بِكُمُ الْآنَ إِلَى "رُوحِ الْقُدُسِ" الَّذِي جَاءَ فِي سِيَاقِ تَأْيِيدِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- تَأْيِيدًا اخْتَصَّهُ اللَّهُ لَهُ .

فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾.

وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَيْضًا: تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾.

وَفِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾.

مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ "رُوحَ الْقُدُسِ" هُنَا -وَمَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ يَأْتَمِرُ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ تَنْزِيلٍ أَوْ نَفْخٍ- هُوَ قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْمَأْلُوفِ، مَنَحَهَا اللَّهُ لِعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِيُؤَيِّدَهُ فِي نَشْرِ رِسَالَتِهِ، وَلِتَمْكِينِهِ مِنْ أَدَاءِ خَوَارِقَ لِسُنَنِ هَذَا الْمَلَكُوتِ، وَكُلُّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِشْفَاءِ الْمَرْضَى.

فِي هَذَا السِّيَاقِ، يُمْكِنُ فَهْمُ "أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" عَلَى أَنَّهُ تَسْلِيحٌ إِلَهِيٌّ لِعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ أَمَدَّهُ بِقُوَّةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَ مِنْ ذَاتِهِ كَإِنْسَانٍ، بَلْ كَانَ يَتَلَقَّى الْقُوَّةَ الْإِلَهِيَّةَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خِلَالِ رُوحِ

الْقُدُسِ، الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ لَهُ الْوَحْيَ، وَيَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ، وَيُمِدُّهُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ يُرْسِلُهَا اللَّهُ لِتَظْهَرَ آيَاتُهُ وَبَرَاهِينُهُ. وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى أَدَاءِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ بِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَيْسَتْ جُزْءًا مِنْ طَبِيعَةِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، بَلْ هِيَ قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ تُؤَيِّدُهُ، كَمَا أَيَّدَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ الْآخَرِينَ بِآيَاتٍ وَبَرَاهِينَ.

عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ بَشَرًا يُجَرَّبُ وَيُخْتَبَرُ كَمَا بَاقِي الْبَشَرِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ خَصَائِصَ إِلَّا مَا آتَاهُ اللَّهُ وَأَذِنَ بِهِ جَلَّ وَعَلَا. فَالتَّأْيِيدُ بِرُوحِ الْقُدُسِ لَيْسَ بِالْمَعْنَى الدِّينِيِّ الْمُتَدَاوَلِ فِي بَعْضِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى، بَلْ هُوَ عَوْنٌ رَبَّانِيٌّ يُمْكِنُ لِأَيِّ بَشَرٍ أَنْ يَتَلَقَّاهُ مِنَ اللَّهِ إِذَا شَاءَ ذَلِكَ رَبُّ الْعِزَّةِ .

كَمَا فِي **سُورَةِ الْمَائِدَةِ: مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾.**

وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ: قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾.

وَفِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾.

وَكَلِمَةُ "أَيَّدْنَاهُ" تُسْتَخْدَمُ فِي الْقُرْآنِ لِبَيَانِ الْقُوَّةِ وَالْمُسَاعَدَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَنْعَمُ اللَّهُ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَفِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، إِمَّا لِدَعْمِهِمْ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، أَوْ لِتَثْبِيتِ قُلُوبِهِمْ عَلَى الْحَقِّ، أَوْ بُرْهَانٍ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةٍ أَوْ رِسَالَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى غَيْرَ سِيَاقِ "أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" الْمَخْصُوصِ بِعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كَمَا فِي **سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾.**

وَفِي سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ: لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾.

وَفِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾.

وَبِهَذَا، يُمْكِنُنَا الْقَوْلُ إِنَّ التَّأْيِيدَ الْإِلَهِيَّ بِمَعْنَاهُ الْوَاسِعِ هُوَ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ دَعْمِ اللَّهِ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ فَصَدَّقَهُمْ، فَأَعْطَاهُمْ مَا لَمْ يُعْطِ غَيْرَهُمْ؛ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ فِي وَجْهِ الصُّعُوبَاتِ وَالتَّحَدِّيَاتِ وَالرَّفْضِ وَالْإِنْكَارِ، رَحْمَةً بِالنَّاسِ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ.

سورة غافر: رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾.

وَلَمَّا كَانَ لِعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مَا كَانَ مِنْ تَأْيِيدٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا الرُّوحِ الشَّرِيفِ، وَالَّذِي كَانَ مِنْ وَظَائِفِهِ نَفْخُ الرُّوحِ لِإِحْيَاءِ النَّاسِ -كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا-، فَأَصْبَحَ لِعِيسَى تَأْيِيدٌ يُمْكِنُهُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَعَنْ طَرِيقِ هَذَا الرُّوحِ، وَبِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ، الَّذِي كَانَ يَنْفُخُ فِي الْمَوْتَى أَوْ فِي الطَّيْرِ الْمَصْنُوعِ مِنَ التُّرَابِ، فَتَدِبُّ الْحَيَاةُ فِيه.

كَمَا فِي **سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾.**

وَأَخِيرًا، بَعْدَ أَنْ تَتَبَّعْنَا مُعْظَمَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا مُفْرَدَةُ الرُّوحِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَبَيَّنَ لَنَا مِنْ خِلَالِهَا أَنَّ الرُّوحَ هُوَ مَخْلُوقٌ غَيْبِيٌّ مُسْتَقِلٌّ، مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ، وَتَأْيِيدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالنَّفْخِ لِغَايَةِ الْإِحْيَاءِ، نَصِلُ إِلَى الْقِسْمِ الْأَخِيرِ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي أَثَارَ جَدَلًا وَاسِعًا بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَأَحْدَثَ خَلْطًا فِي الْفَهْمِ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي **سُورَةِ الْحِجْرِ: فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾.**

وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾.

وَفِي سُورَةِ السَّجْدَةِ: ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾.

وَفِي سُورَةِ ص: فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾.

وَفِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾.

وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ: يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾.

رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ مُفْرَدَةَ الرُّوحِ فِي الْقُرْآنِ لَا يَتَغَيَّرُ مَعْنَاهَا مِنْ سِيَاقٍ إِلَى آخَرَ، بَلْ جَاءَتْ بِدَلَالَةٍ وَاحِدَةٍ ثَابِتَةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ كَائِنٌ غَيْبِيٌّ مُوَكَّلٌ بِمَهَامٍ، وَمُرْتَبِطٌ دَائِمًا بِالْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ، وَلَا يُمْكِنُ فَهْمُهُ عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ يَسْكُنُ الْجَسَدَ وَيَسْرِي فِيهِ وَيُلَازِمُهُ حَتَّى مَمَاتِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ مَفْهُومُ النَّفْسِ لَا الرُّوحِ.

كَمَا فِي **سُورَةِ النِّسَاءِ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾.**

وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾.

وَفِي سُورَةِ لُقْمَانَ: مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾.

وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَحْمِلُ شَيْئًا مِنْ ذَاتِ اللَّهِ أَوْ جُزْءًا مِنْ "رُوحِ اللَّهِ ذَاتِهِ" -كَمَا تَوَهَّمَ الْبَعْضُ-، فَكَمَا قُلْنَا آنِفًا، لَمَا أَخْطَأَ ولاَ عَصَى، وَلَا كَفَرَ، وَلَا نَسِيَ، وَلَا ارْتَكَبَ الْآثَامَ وَالْمَعَاصِيَ وَالْفَوَاحِشَ، وَلَمَا أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، وَلَمَا احْتَاجَ أَنْ يُزَكِّيَ نَفْسَهُ. فَهَذَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي جَبَلَهَا اللَّهُ مِنْ ضَعْفٍ وَعِصْيَانٍ وَتَكَبُّرٍ. فَكَيْفَ يَكُونُ فِينَا رُوحًا مِنْ ذَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ -وَحَاشَاهُ- نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَرْتَضِيهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَنَزَّهَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ؟! فَهَذَا كُلُّهُ فِعْلُ النَّفْسِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا الذَّاتُ الْبَشَرِيَّةُ، وَالَّتِي تُحَدِّدُ هُوِيَّةَ وَصِفَاتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا. وَأُكَرِّرُ: فَحَاشَا لِلنُّورِ الْإِلَهِيِّ أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنَّا، وَنَحْنُ مَنْ نَحْنُ مِنْ عُصَاةٍ وَآثِمِينَ وَمُفْسِدِينَ - كُلُّنَا أَوْ مُعْظَمُنَا!

هَذَا الْخَلْطُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ أَدَّى إِلَى ضَبَابِيَّةٍ فِي الْفَهْمِ. فَقَدْ وَضَّحَ الْقُرْآنُ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ مَنْ تَسْكُنُ الْجَسَدَ وَتَحْيَا فِيهِ وَتُغَادِرُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الرُّوحَ فِي هَذَا الْمَقَامِ. وَقَدْ وَضَّحَ صِفَاتِهَا فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْآيَاتِ.

كَمَا فِي **سُورَةِ الْكَهْفِ: مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾.**

فَكَيْفَ للنفس الّتي خُلِقَتْ أَنْ تَكُونَ جُزْءًا مِنَ اللَّهِ؟ !

وَفِي سُورَةِ الشَّمْسِ: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾.

وَهِيَ الَّتِي تُكَلَّفُ وَتُحَاسَبُ، كَمَا فِي **سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾.**

وَهِيَ الَّتِي تُتَوَفَّى عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَا فِي **سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾.**

وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾.

وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ: فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾.

وَفِي سُورَةِ الْفَجْرِ: يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾.

وَهِيَ الَّتِي تُجْزَى بِعَمَلِهَا، كَمَا فِي **سُورَةِ طه: إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾.**

وَهِيَ الْمُدْرِكَةُ الْمُخْتَبِرَةُ الَّتِي تَشْهَدُ عَلَى ذَاتِها، كَمَا فِي **سُورَةِ الْقِيَامَةِ: بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾.**

فَالنَّفْسُ هِيَ كِيَانُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَعْرِفُ وَيَشْعُرُ وَيَخْتَارُ وَيَكْفُرُ أَوْ يُؤْمِنُ، وَهِيَ قِوَامُ وُجُودِهِ. فَأَنَا أَقُولُ: هَذَا جَسَدِي، وَهَذِهِ يَدِي -كَمَا أَقُولُ: هَذَا بَيْتِي، وَهَذِهِ سَيَّارَتِي-، هَذِهِ أَشْيَاءٌ مَلَّكَهَا اللَّهُ لِي، فَهِيَ لَيْسَتْ أَنَا. أَنَا النَّفْسُ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ لِي فِي هَذَا الْجَسَدِ الَّذِي سَيَبْلَى عِنْدَ الْمَوْتِ. أَمَّا الرُّوحُ، فَهِيَ سِرٌّ إِلَهِيٌّ عَلَوِيٌّ لَا تَسْكُنُ الْجَسَدَ، وَلَٰكِنْ تَرْبِطُ الْجَسَدَ بِالنَّفْسِ، فَتُفَعِّلُ الْحَيَاةَ بَيْنَ مَا هُوَ مَحْسُوسٌ مِنْ جَسَدٍ وَمَا هُوَ غَيْرُ مَحْسُوسٍ مِنْ نَفْسٍ، لِتَنْقُلَنَا

مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ، بِطَرِيقَةٍ لَنْ نَعْلَمَهَا وَلَنْ نَعْقِلَهَا أَبَدًا. بِالتَّالِي، تَجْعَلُنَا نَتَفَاعَلُ مَعَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ لَنَا لِيَكُونَ دَارَ اخْتِبَارٍ .

إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي هِيَ قِوَامُ الْحَيَاةِ، وَالَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ حَيًّا، وَجَذْرُهَا اللُّغَوِيُّ (نَفْسَ)، وَمِنْهَا جَاءَ الْفِعْلُ (تَنَفَّسَ)، أَيْ إِخْرَاجُ الْهَوَاءِ وَإِدْخَالُهُ لِجَسَدِنَا هَذَا فِي مُعَادَلَةٍ وَضَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا بُدَّ مِنْهَا لِنَكُونَ أَحْيَاءً. فَالْإِنْسَانُ حَيٌّ لِأَنَّهُ يَتَنَفَّسُ، وَ(تَنَفَّسَ) فِي اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلَى اتِّسَاعِ الصَّدْرِ بِلَاغَةً وَبَيَانًا عَلَى وُجُودِ الْحَيَاةِ. وَيُشِيرُ الْقُرْآنُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِلُطْفٍ بَالِغٍ، كَمَا فِي **سُورَةِ التَّكْوِيرِ: وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾.**

كَأَنَّ الصُّبْحَ كَائِنٌ حَيٌّ يَسْتَعِيدُ أَنْفَاسَهُ بَعْدَ كُلِّ ظُلْمَةٍ، فَتَتَجَلَّى الْحَيَاةُ بَعْدَ السُّبَاتِ.

وَجَاءَتِ الْآيَاتُ التَّالِيَةُ لِتُؤَكِّدَ عَلَى مَعْنَى مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ لِدَلَالَةِ مُفْرَدَةِ الرُّوحِ، وَالَّذِي يُؤْمَرُ بِكُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ وَجَمِيلٌ مِنْ رَاحَةٍ وَتَرْوِيحٍ. فَجَاءَتْ بِمُشْتَقَّاتٍ وَسِيَاقَاتٍ ثَانِيَةٍ لِتُعْطِيَ نَفْسَ الدَّلَالَةِ.

كَمَا فِي **سُورَةِ الرَّحْمَنِ: وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾.**

وَفِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ: فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾.

وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ: يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾.

وَرَوْحُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ هِيَ وَصْفٌ لِأَعْلَى دَرَجَاتِ الرَّاحَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وَحَتَّى فِي تَسْمِيَةِ الرِّيَاحِ الَّتِي بِهَا الْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ، فَتُسَيِّرُ السَّحَابَ الَّذِي حِينَ يَحْمِلُ بِالْمِيَاهِ يَكُونُ غَيْثًا وَحَيَاةً لِلْأَرْضِ وَالْإِنْسَانِ: يَسْقِي الْأَرْضَ فَتَنْبُتُ، وَيَسْقِي الْإِنْسَانَ فَيَبْقَيه حَيًّا، وَيَحْمِلُ اللَّوَاقِحَ فَيَنْقُلُ الْحَيَاةَ مِنْ مَكَانٍ لِمَكَانٍ، وَيَنْشُرُ الْخَيْرَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَدْخُلُ بِفَاعِلِيَّةٍ فِي دَوْرَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَوَاسِمِ الَّتِي تُجَدِّدُ الْحَيَاةَ عَلَى مَدَارِ الْعَامِ .

وَهَكَذَا، يَظَلُّ مَعْنَى الرُّوحِ مُتْمَاسِكًا وَمُتَّسِقًا فِي كُلِّ السِّيَاقَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَلَا يَشُوبُهُ اضْطِرَابٌ وَلَا غُمُوضٌ إِلَّا أَمَامَ مَنْ لَمْ يُعْمِلِ التَّدَبُّرَ وَلَمْ يَلْتَزِمْ بِوَحْدَةِ السِّيَاقِ. وَهُنَا تَحْدِيدًا، تَتَجَلَّى لَنَا مَهَمَّةُ الرُّوحِ فِي إِيصَالِ أَمْرِ اللَّهِ لِإِحْيَائِنَا، فَكَانَ بِذَلِكَ هُوَ الرُّوحَ الَّذِي نَفَخَ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَتَمَّتْ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ الْخَلَّابُ فِي بَثِّ الْحَيَاةِ.